[٧٧] لا يفتى ومالك في المدينة (١)

كلمة نسمعها كثيراً ونرددها فى بعض المواقف والمناسبات ، وهى تدل على عظيم قدر الإمام مالك وعلو مكانته وغزارة علمه ، وقد أضحت مثلاً يضرب لمن أُريد الإشادة بعلمه وفضله والرجوع إليه وقبول قوله وحكمه ، فما أصل هذه الكلمة وما سبب إطلاقها ؟!! .

يروى أن امرأة فى المدينة المنورة ماتت فجيء لها بالمغسلة ، فلما وضع الجثمان وتقدمت المغسلة لتباشر الغسل ، صبت الماء على جسد هذه الميتة وجعلت تدلكه فلما وصلت بالدلك إلى فرج الميتة قذفتها بالسوء وقالت : كثيراً ما زنى هذا الفرج ، فالتصقت يد المغسلة بجسم الميتة ، وجعلت لا تستطيع فصلها عن جسمها ، فأغلقت الباب حتى لا يراها أحد على هذه الحال .. وأهل الميتة ينتظرون خروج المغسلة من البيت ، لكنها أبطأت .. فدخلت إحدى النساء عليها فرأتها على هذه الهيئة ، فحاولوا فصل اليد الملتصقة بالجسم لكنهم لم يستطيعوا ، فسألوا العلماء فى شأنها فتحيروا ... واختلفوا .. أيقطع جزء من جسم الميتة لتخليص اليد ؟ أم تقطع اليد وتدفن مع الجثة ؟!! وأخيراً قالوا : علام نختلف وبيننا عالم المدينة الإمام مالك ؟! ، فسألوه فحضر بنفسه وسأل المغسلة من وراء الباب .. ماذا قلت فى حق الميتة ؟ فصارحته بالحقيقة وقالت : لقد رميتها بالزنا ! ، فقال الإمام مالك : هذه المرأة قاذفة وحد القذف ثمانون جلدة ، فلتجلد المرأة ثمانين جلدة فباشروا الضرب ، وبعد تمام الجلدة الثمانين رُفعت يد المغسلة من جسد الميتة وانفصلت عنها ... ومن ذلك الحين قالوا : لا يفتى ومالك فى المدينة .

---

(١) مواقف مشرقة فى حياة السلف ، محمد موسى الأسود .

[٧٨] الفاجعة [١]

غداً أسافر إلى المدينة ..

انتبه لنفسك يا بني ..

لا عليك يا أمي .. سأدرس الطب لأقف بجانبك وأعالجك .. الحمد لله .. كنت أنتظر هذا منذ مدة .. وها أنت ستبدأ الدراسة عما قريب .. لا تنسنا من الرسائل يا ولدى ..

سأكتب لك دائماً يا أمي ..

ويصبح الصباح وتشرق الشمس فى سماء القرية التى تجمّع أهلها لوداع فلذات أكبادها .. عدد من الشباب سيغادرون القرية للدراسة فى الجامعة .. ويسافر خالد وليس يشغل باله إلا الدراسة ..

سأبذلك كل جهدي .. لن أتراجع إلى الوراء .. سأنال الشهادة وأعود طبيباً عطمياً أعالج الناس فى قريتي ..

ويصل المدينة ويبحث عن سكن .. يجد بيتاً متواضعاً يسكن فيه ، وتبدأ الدراسة .. ينكب خالد على دروسه وكأنما يلتهم العلم إلتهاماً .. يتفوق فى الاختبارات على أقرانه .. ينتبه زملاؤه لتقدمه .. ينال إعجاب الجميع ..

عاش فى جو الجامعة المتميز بالاختلاط .. كانت المغريات تحف به .. ولتفوقه كانت الفتيات تلاحقنه ويهرب منهن .. لم يفلت من شر الأشرار .. خطط له جماعة منهم ليوقعوه فى حبالهم .. حاولوا مراراً وبكل الوسائل دون

---

(١) حوادث واقعية للحميدى .

فائدة .. ثم نصبوا له بعد ذلك شرك المخدرات .. ووقع فيه بعد تناول حبة واحدة فى حيلة خبيثة فعلها الأشقياء ..

شعر باضطراب غريب .. أصابه الهيجان وتملكته العصبية ، بحث عن حل لما هو فيه .. قاده ذلك إليهم .. وغدا ذليلاً بين أيديهم ..

بدأ يتخلف عن الدراسة فى الجامعة .. هزل جسمه .. بدأ يتقبل فعل المنكرات .. لم يعد يتردد فى ارتكاب المعاصي والآثام .. صار علماً بارزاً لعصابات المخدرات .. وقع فى شراك الزنا .. كان واحداً من أولئك الذين تفرغوا لاصطياد الفتيات وإيقاعن فى شباك الفساد والفجور .. واتفق معهم على اصطياد فتاة كل أسبوع وتناوب مع رفقاء السوء فى ارتكاب الفاحشة .. وظل على هذه الحال حتى غربت شمس ذلك اليوم .. جاء إليه أحد أصدقائه ..

خالد .. خالد .. أتينا بفتاة جميلة ..

حقاً .. وأين هى ؟

إنها تنتظرك .. فقد جاء دورك ..

هل انتهيت أنت .. ؟

نعم .. هيا ..

وينهض بخفة وقد تملكته البهجة والسرور .. ويتجه لباب الغرفة مقبلاً على الفاحشة لا يردعه رادع ، ولا يرده وازع .. يدخل ويغلق الباب .. يلتفت لينظر إلى الفتاة الجميلة .. آآه .. من .. ؟!!! .

ويجثو على ركبتيه .. لا .. لا .. ما الذى جاء بكِ إلى هنا .. ؟ .

شعر باختناق لهول الفاجعة .. أحس وكأن صاعقة أصابته وأحرقت قلبه .. إنها أخته .. تلك الفتاة التى جاءت للمدينة للبحث عنه ومعرفة أخباره .. ضلت الطريق ووقعت فى شباك الأشقياء الفجرة لتدفع ديناً باهظاً على أخيها .. !! .

[٧٩] يُطلق خمسة في ساعة !!

كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات ، فقال : إلى متى هذا التنازع ؟ ما أظن هذا الأمر إلا من قبلك « يقول ذلك لامرأة منهن » : اذهبي فأنت طالق ، فقالت له صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً ، فقال لها : وأنت طالق .

فقالت الثالثة : قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين وعليك مفضلتين . فقال : وأنت أيتها المعددة طالق أيضاً .

فقالت له الرابعة : وكانت هلالية وفيها أناة شديدة : ضاق صدرك على أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق ؟ فقال لها : وأنت أيضاً طالق .

وكان ذلك بسمع جارة له ، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه ، فقالت : والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا بما بالوه منكم ووجدوه فيكم ، أبيت الإ طلاق نسائك الأربع فى ساعة واحدة ، فقال لها : وأنت أيتها المؤنبة المتكلفة طالق إن أجاز زوجك ... فأجابه من داخل بيته : قد أجزت .. قد أجزت .. .

[٨٠] كلمة حق عند سلطان جائر [١]

دخل الحسن البصري التابعى الجليل على الحجاج بن يوسف [٢] ، بواسط ، فلما رأى بناءه قال : الحمد لله ، أن هؤلاء الملوك ليرون فى أنفسهم عبراً ، وأنا لنرى فيهم عبراً ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده ، وإلى فرش فيتخذه ، وقد حفى به ذباب الطمع ، وفراش نار ، ثم يقول : ألا فانظروا ما صنعت ، فقد رأينا – يا عدو الله ما صنعت ، فماذا يا أفسق الفسقة ، ويا أفجر الفجرة ، أما أهل السماء فلعنوك ، وأما أهل الأرض فمقتوك .

ثم خرج وهو يقول : إنما أخذ الله الميثاق على العلماء ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

فاغتاظ الحجاج غيظاً شديداً ثم قال : يا أهل الشام ، هذا عُبيد أهل البصرة يشتمني فى وجهي فلا ينكر عليه أحد ، عليَّ به والله لأقتلنه ، فمضى أهل الشام ، فأحضروه ، وقد أعلم بما قال ، فكان فى طريقه يحرك شفتيه بما لا يُسمع .

فلما دخل على الحجاج ، رأى السيف والنطع [٣] بين يديه وهو متغيّظ ،

---

(١) الفرج بعد الشدة والضيق ، للحازمى .

(٢) والي العراقيين لعبد الملك بن مروان ، وهو الذى يضرب به المثل فى الظلم والجور ، وبلغ من حقده على رسول الله ﷺ أنه لما دخل المدينة سماها : نتنة وقد سماها النبى ﷺ طيبة ، وسمى الأنصار ، الأشرار ، ولد الحجاج فى الطائف سنة ٤٠ هـ ، وكان أخفش العينين ، دقيق الصوت ، وكان سفّاكاً للدماء ، قتل أكثر من مائة ألف رجل ، ولما مات خلف فى حبسه ثمانين ألف حبسوا بغير جرم ، منهم خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، قال الخليفة عمر بن عبد العزيز : لعن الله الحجاج ، فإنه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة .

(٣) النطع : بساط من الجلد يقتل عليه حتى لا يتسخ المكان بالدم – الناشر – .

فلما وقعت عليه عين الحجاج كلمه بكلام غليظ ورفق به الحسن ووعظه ، فأمر الحجاج بالسيف والنطع فرفعا ، ثم لم يزل الحسن يمر فى كلامه ، إلى أن دعا الحجاج بالطعام ، فأكلا ، وبالوضوء فتوضأ ، وبالغالية ، فغلّفه بيده ، ثم صرفه مكرماً .

قيل للحسن البصري : بم كنت تحرك شفتيك ؟

قال : قلت يا غياثي عند دعوتى ، ويا عدّتى فى ملمتى ، ويارب عند كربتى ، ويا وليّ فى نعمتى ، ويا إلهى وإله إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وموسى وعيسى ، ورب النبيين كلهم أجمعين ، يا كافى موسى فرعون ، ويا كافى محمد الأحزاب ، صل على محمد وآله الطيبين الطاهرين الأخيار ، وارزقنى مودة عبدك الحجاج ، وخيره ، ومعروفه ، واصرف عنى أذاه وشره ومكروهه . فكفاه الله تعالى شره بمنه وكرمه .

[٨١] غلام يتورع

كان رجل من قبيلة شيبان ، فى العصر العباسى الأول ، يعمل عند السلطان فى مهمة دقيقة ، وهى أنه يتجول فى السوق كل صباح حتى الظهر ، ويتحسس ما يقوله الناس ويفعلونه ويكتب ذلك فى تقرير ، ثم يختمه ثم يرسله إلى رئيس له ، فيجمع الرئيس هذه التقريرات ثم يرفعها إلى السلطان ، وذلك لمصلحة الأمن ودَرْء المخاطر عن سواد الشعب .

وفى مرة شُغل الرجل الموظف هذا بشغل ما فى يومه ، فبعد أن تحسس الأخبار والأقوال فى سوقه ، كتب ما سمع وختمه نادى ابن أخ له ، اسمه أحمد الصغير ، وقال له :

- هل تعرف يا أحمد محل رئيسى الذى يتسلم منى التقرير كل يوم ؟ .
- قال الصغير : نعم .

فقال العم: إذن اذهب بتقرير اليوم هذا مختوماً فأعطه لرئيسى ، وقل له : شُغل عمي فجأة ، وهذا تقريره .

وأخذ الصغير التقرير ، ومشى فى اتجاه قلب المدينة إلى حيث دائرة ذلك الرئيس الأمنى ..

ولو أنه أدّى الأوراق كما أمره عمه ، لمرت الحادثة ، وغفل عنها التاريخ ، ولم نذكرها نحن اليوم بعد قريب من أربعة عشر قرناً .. ولكن الغلام يومئذ ، تصرف تصرفاً رائعاً ، أثبتته التاريخ ، وضجت به المحافل ، وسطّرته الكتب .. وذلك أن الطفل ذاك مر على جسر على نهر فى الطريق ، وإذ نفسه تحدثه :

يا أحمد .. إنك صغير .. ولكنك تعرف عمل عمك ، إنه يكتب كل ما يسمعه من الناس فى السوق وما يعملونه ، وهذا محرّم فى دين الله ، فهو نوع من التجسس والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [١] ، فأنت إذن يا أحمد .. تحمل شيئاً ممنوعاً ، وتساعد على أمر نهى عنه القرآن .

وفجأة تنبه أحمد الصغير .. لحديث نفسه وفوراً رمى التقرير بقوة فى النهر وعاد إلى المنزل .

واستبطأ الرئيس التقرير ، فأرسل رجاله ، فأخبرهم العم أنه أرسله مع ابن أخيه .. فجاؤوا إلى الغلام فسألوه .. فقال : رميته فى النهر .

فصاحوا عجبين دهشين : ماذا ؟ كيف فعلت .. ولماذا ؟ .

قال : لأنه حرام .. فهو نوع من التجسس المنهيُّ عنه .. ولا أريد أن أكون من المعينين عليه .

وبلّغوا فوراً رئيسهم ما جرى ، فصُدع لها .. وصُدم .. مع إعجاب هاجم .. وقال وهو يصفق بيديه : هذا غلام يتورع .. فكيف نحن ؟! .

ومن يومئذ .. أصبحوا ينظرون إلى ذلك الغلام .. كأنهم ينظرون إلى رجل كبير ..

فهل تعرف من كان ذلك الغلام ؟ إنه الإمام : « أحمد بن حنبل » العَلَم الكبير فى الحديث والفقه ، والذى يسمى « إمام الورع » وهو أيضاً بطل الإسلام الخالد الذى لما حصروه بالفتنة فى أيام المأمون .. دافع عن العقيدة الإسلامية دفاع الأبطال ، وتحمل كل أذى ، ولم يقل فى دين الله إلا ما يقوله

---

(١) سورة الحجرات الآية « ١٢ » .

القرآن والحديث .. وقد ذهب أصحاب الفتنة .. وبقي الإمام أحمد بن حنبل ، بطلاً إسلامياً رائعاً .. وكان منذ صغره يتورع ، ويتصرف في كل شيء حسب الكتاب والسُّنة .. رحمه الله [1] .

---

[1] مجلة الفرقان عدد ١٤٥ شوال ١٤١٧هـ .

[٨٢] استجابة دعوة سعد وسعيد

● عن ابن عمر رضى الله عنه أن مروان أرسل إلى سعيد بن زيد رضي الله عنه ناساً يكلمونه فى شأن أروى بنت أوس – وخاصمته فى شيء – فقال : يرونى أظلمها ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين** » .

اللهم إن كانت كاذبة فلا تُمتها حتى يعمى بصرها ، وتجعل قبرها فى بئرها ، قال : فوالله ما ماتت حتى ذهب بصرها .. وخرجت تمشى فى دارها وهى حذرة فوقعت فى بئرها وكانت قبرها .

● كان الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه مجاب الدعوة ، حيث دعا له رسول الله ﷺ عندما طلب من الرسول ذلك ، فقال له ﷺ : « **أطب مطعمك تجب دعوتك** » ، وجاء فى الصحيحين عن جابر بن سلمة أن أهل الكوفة شكوا سعداً إلى عمر فى كل شيء حتى قالوا : لا يحسن يصلى ، فقال سعد : أما إنى لا آلو أن أصلي بهم صلاة رسول الله أطيل الأوليين الأخريين ، فقال عمر : هو الظن بك يا أبا إسحاق ، وكان قد بعث من يسأله عنه بمحال الكوفة ، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيراً ، حتى مروا بمسجد لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له أبا سعدة ، فقال : إن سعداً كان لا يسير فى السرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى الرعية القضية ، فبلغ سعداً ، فقال : اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطل عمره وأدم فقره وأعم بصره وعرضه للفتن ، فقال : فإنى رأيته بعد ذلك شيخاً كبيراً قد سقطت حاجباه على عينيه يقف فى الطريق فيغمز الجوارى فيقال له ، فيقول شيخ مفتون أصابته دعوة سعد .

[٨٢] قصة الإبن المبارك

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : ما خلق الله مؤمناً سمع بى ولا يرانى إلا أحبنى ، إن أمى كانت مشركة ، وإنى كنت أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى على ، وإنى دعوتها ذات يوم فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ – ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إنى أمى امرأة مشركة ، وإنى كنت أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى علىَّ ، وإنى دعوتها فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أمى ، فقال : « **اللهم اهد أم أبى هريرة** » .

فخرجت أعدو أبشرها بدعوة رسول الله ﷺ فلما أتيت الباب إذا هو مجاف ، وسمعت خضخضة الماء ، وسمعت خشف رجلى ، فقالت : يا أبا هريرة ، كما أنت ، وفتحت الباب ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، فقالت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكى من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقلت :

يا رسول الله ، أليس قد استجاب الله دعوتك ، فهدى أمَّ أبى هريرة ، ادع الله أن يحببنى وأُمِّى إلى عباده المؤمنين ، ويُحبِّبَهُم إليَّ ، وإليها ، فقال :

« **اللهم حبِّب عبدك وأمَّهُ إلى عبادك المؤمنين وحبِّبهُم إليه** » [١] .

---

(١) رواه مسلم .

[٨٤] ورطة تساوي وزنها ذهباً (١)

دخل أحد السلف أحد المزارع وكان جائعاً متعباً فشدته نفسه لأن يأكل وبدأت المعدة تقرقر ، فأطلق عينيه على الأشجار فرأى تفاحة فمدّ يده إليها ثم أكل نصفها بحفظ الله ورعايته ثم شرب من ماء نهر بجانب المزرعة ، لكن انتبه بعد ذلك من غفلته بسبب الجوع وقال لنفسه : ويحك كيف تأكل من ثمار غيرك دون استئذان ؟ وأقسم ألا يرحل حتى يدرك صاحب المزرعة ويطلب منه أن يحلل له ما أكل من هذه التفاحة ، فبحث حتى وجد داره فطرق عليه الباب فلما خرج صاحب المزرعة استفسر عما يُريد ... قال صاحبنا : دخلت بستانك الذى بجوار النهر وأخذت هذه التفاحة وأكلت نصفها ثم تذكرت أنها ليست لى وأريد منك أن تحللنى فى أكلها وأن تسامحنى عن هذا الخطأ ، فقال الرجل : لا أسامحك عن هذا الخطأ إلا بشرط واحد ، قال صاحبنا وهو « ثابت بن نعمان » : وما هو هذا الشرط ؟ ، قال صاحب المزرعة : أن تتزوج ابنتى ، قال ثابت : أتزوجها ، قال الرجل : ولكن انتبه إن ابنتى عمياء لا تبصر ، خرساء لا تتكلم ، وصماء لا تسمع ، وبدأ ثابت بن النعمان يفكر ويقدر – انعم بها من ورطة – ماذا يفعل ؟ .

ثم علم أن الابتلاء بهذه المرأة وشأنها وتربيتها وخدمتها خير من أن يأكل الصديد فى جهنم جزاء ما أكله من التفاحة ، وما الأيام وما الدنيا إلا أياماً معدودات ، فقبل الزواج على مضض وهو يحتسب الأجر والثواب من الله رب

---

(١) قصص إيمانية ، عادل العبد العالى .

العالمين ، وجاء يوم الزفاف وقد غلب الهم على صاحبنا ، كيف أدخل على امرأة لا تتكلم ولا تبصر ولا تسمع فاضطرب حاله وتمنى أن لو تبتلعه الأرض قبل هذه الحادثة ولكنه توكل على الله وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل عليها يوم الزفاف فإذا بهذه المرأة تقوم إليه وتقول له السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فلما نظر إليها تذكر ما يتخيله عن الحور العين فى الجنة ، قال بعد صمت : ما هذا ؟ إنها تتكلم وتسمع وتبصر ، فأخبرها بما قال عنها أبوها ، قالت : « صدق أبى ولم يكذب » .

قال : اصدقينى الخبر ، قالت : « أبى قال عنى إننى خرساء لأننى لم أتكلم بكلمة حرام ، ولا تكلمت مع رجل لا يحل لي .. وإننى صماء ما جلست فى مجلس فيه غيبة ونميمة ولغو .. وإننى عمياء لأننى لم أنظر إلى أى رجل لا يحل لى » .

فانظر واعتبر بحال هذا الرجل التقى وهذه المرأة التقية وكيف جمع الله بينهما ، وكانت الثمرة مولوداً ملأ طباق الأرض علماً ، إنه ابنها الإمام الأعظم « أبو حنيفة النعمان » .

obeikandl.com

[٨٥] ضريبة العلم [١]

لما عجز المعتصم عن ثني الإمام أحمد – رحمه الله – عن رأيه فى القرآن نصب له آلة التعذيب ومده الزبانية عليها وضربوه حتى انخلعت كتفه وانبثق الدم من ظهره فقال له المعتصم :

يا أحمد : قل هذه الكلمة وأنا أفك عنك بيدى وأعطيك وأعطيك .. والإمام أحمد يقول :

هاتوا آية أو حديثاً .

فقال المعتصم للجلاد : « شد قطع الله يدك » فضربه ضربة أخرى فتناثر لحم الإمام ، وقال له عالم من جماعة الخليفة : ألم يقل الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [٢] ، فقال له الإمام – رحمه الله – :

« اخرج وانظر أى شيء وراء الباب » فخرج إلى صحن القصر فإذا جمع لا يحصيهم إلا الله معهم الدفاتر والأقلام ..

قال : أى شيء تعملون ؟ .

قالوا : ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه ..

فرجع وأخبره ... فقال رحمه الله :

« أنا أضل هؤلاء كلهم ! أقتل نفسى ولا أضلهم » .

رحم الله الإمام أحمد .

---

(١) اللآلي الحسان ، الجزء الرابع ، للمسند .
(٢) سورة النساء الآية « ٢٩ » .

[٨٦] هكذا فلتكن النساء [١]

(أ) روى أن شريحاً القاضي قابل الشعبي يوماً ، فسأله الشعبي عن حاله في بيته فقال له : « من عشرين عاماً لم أر ما يغضبني من أهلي » قال له: وكيف ذلك ؟ قال شريح : « من أول ليلة دخلت على امرأتي ، رأيت فيها حسناً فاتناً وجمالاً نادراً ، قلت في نفسي فلأطهر وأصلي ركعتين شكراً لله ، فلما سلمت وجدت زوجتي تصلي بصلاتي وتسلم بسلامي ، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء قمت إليها . فمددت يدي نحوها ، فقالت : على رسلك يا أبا أمية ، كما أنت ، ثم قالت : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك ، فبين لي ما تحب فآتيه ، وما تكره فأتركه ، وقالت : إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم ، وفي قومي من الرجال من هو كفء لي ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك به الله إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك ... » .

قال شريح : « فأحوجتني – والله يا شعبي – إلى الخطبة في ذلك الموضع فقلت : الحمد لله أحمده وأستعينه . وأصلي على النبي وآله وأسلم ، وبعد فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك حظك ، وإن تدعيه يكن حجة عليك ، أحب كذا وكذا ، وأكره كذا وكذا ، وما رأيت من حسنة فانشريها ، وما رأيت من سيئة فاستريها .

---

(١) مرفأ ، يحيى سعيد آل شلوان .

فقالت :كيف محبتك لزيارة أهلي ؟ قلت : ما أحب أن يملني أصهاري، فقلت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له ، ومن تكره فأكره ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء » .

قال شريح : « فبت معها بأنعم ليلة ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء فإذا بفلانة في البيت قلت : من هي ؟ قالوا : ختنك ، – أي أم زوجك – فالتفتت إلي وسألتني : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، قالت : يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة ، فأدب ما شئت أن تؤدب ، وهذب ما شئت أن تهذب ، فمكثت معي عشرين عاماً لم أعب عليها في شيء إلا مرة وكنت لها ظالماً » .

هكذا فلتكن النساء [١]

(ب) سافرت إلى مدينة جدة فى مهمة رسمية .. وفى الطريق .. فوجئت بحادث سيارة .. يبدو أنه وقع لتوّه .. كنت أول من وصل إليه ..

أوقفت سيارتى .. واندفعت مسرعاً إلى السيارة المصطدمة .. تحسستها فى حذر .. نظرت إلى داخلها .. حدّقت النظر .. خفقات قلبى تنبض بشدة ، ارتعشت يداي .. تسمّرت قدماي .. خنقتني العبرة ! .

ترقرقت عيناي بالدموع .. ثم أجهشت في البكاء !!

منظر عجيب .. وصورة تبعث الشجن .. كان قائد السيارة ملقى على مقودها جثة هامدة .. وقد شخص ببصره إلى السماء .. رافعاً سبابته .. وقد افترّ ثغره عن ابتسامة جميلة .. ووجهه تحيط به لحية كثيفة .. كأنه الشمس فى ضحاها .. والبدر فى سناه !!

والعجيب .. أن طفلته الصغيرة كانت ملقاة على ظهره .. محيطة بيديها على عنقه .. وقد لفظت أنفاسها .. وودعت الحياة !! .

لا إله إلا الله ! لم أر ميتة كمثل هذه الميتة .. طُهرٌ .. وسكينةٌ .. ووقار .. صورته وقد أشرقت شمس الاستقامة على محياه ..

منظر سبابته التى ماتت توحّد الله ..

جمال ابتسامته التى فارق بها الحياة .. حلّقت بي بعيداً .. بعيداً ..

---

(١) المرفأ ، يحيى سعيد آل شلوان .

تفكرت فى هذه الخاتمة الحسنة .. ازدحمت الأفكار فى رأسى .. سؤال يتردد صداه فى أعماقى .. يطرق بشدة ... كيف سيكون رحيلي ؟!!

على أى حال ستكون خاتمتي ؟!! .

يُطرق بشدة .. يمزق حجب الغفلة .. تنهمر دموع الخشية .. ويعلو صوت النحيب .. من رآنى هناك ظن أنى أعرف الرجل ، أو أن لى به قرابة ..

كنت أبكى بكاء الثكلى .. لم أكن أشعر بمن حولى ..

انساب صوتها يحمل برودة اليقين .. لامس سمعي .. ردني إلى شعورى .. يا أخي ! لا تبك عليه .. إنه رجل صالح ! ..

هيا .. هيا .. أخرجنا من هناك ، وجزاك الله خيراً ..

التفت إليها .. تقبع فى المقعدة الخلفية من السيارة .. تضم إلى صدرها طفلين صغيرين لم يُمسّا بسوء ، ولم يصابا بأذى ! ..

كانت شامخة فى حجابها شموخ الجبال ..

هادئة فى مصابها هدوء النسيم ..

لا بكاء .. ولا صياح .. ولا عويل !!

أخرجناهم جميعاً من السيارة ..

من رآنى ورآها ظن أنى صاحب المصيبة دونها !! ..

قالت لنا وهى تتفقد حجابها ، وتستكمل حشمتها ، فى ثبات الراضي بقضاء الله وقدره : لو سمحتم .. احملوا زوجي وطفلتي إلى أقرب مستشفى .. وسارعوا فى إجراءات الغسل والدفن ! واحملوني وطفليَّ إلى منزلنا .. جزاكم الله خير الجزاء ..

بادر بعض المحسنين إلى حمل الرجل وطفلته إلى أقرب مستشفى .. ومن ثم إلى أقرب مقبرة ، وأما هى .. فقد عرضنا عليها أن تركب مع أحدنا إلى منزلها .. فردت فى حياء وثبات : لا والله ! .

لا أركب إلا فى سيارة فيها « نساء » !!

ثم انزوت عنّا جنباً ممسكة بطفليها الصغيرين .. ريثما نجد بغيتها ، وتحقق منيتها .. استجبنا لرغبتها .. وأكبرنا موقفها .. .

مرّ الوقت طويلاً ونحن ننتظر على تلك الحال العصيبة .. فى تلك الأرض الخلاء .. ساعتين كاملتين .. حتى مرت بنا سيارة فيها رجل وأسرته .. أوقفناه .. أخبرناه خبر هذه المرأة .. وسألناه أن يحملها إلى منزلها .. فلم يمانع .

عدت إلى سيارتى وأنا أعجب من هذا الثبات العظيم ..

ثبات الرجل على دينه واستقامته فى آخر لحظات الحياة ..

وأول طريق الآخرة ..

وثبات المرأة على حجابها وعفافها فى أصعب المواقف وأحلك الظروف !!

إنه الإيمان !!

إنه الإيمان ..

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾ [١] .

---

(١) سورة إبراهيم الآية « ٢٧ » .

[٨٧] وفاء أعرابي (١)

أتى الحجاج بقوم كانوا قد خرجوا عليه ، فأمر بقتلهم وبقى منهم واحد ، فأقيمت الصلاة ، فقال الحجاج لقتيبة بن مسلم : ليكن عندك ، وتغدو به علينا ، قال : فخرجت والرجل معي ، فلما كانا فى الطريق قال لى : هل لك فى خير ؟ قلت وما هو ؟ إن عندي ودائع للناس ، وإن صاحبك لقاتلي ، فهل لك أن تخلي سبيلي لأودع أهلي ، وأعطي كل ذى حق حقه ، وأوصى بما عليَّ ولي ، والله تعالى كفيل لى أن أرجع إليك بكرة ، قال : فتعجبت من قوله وتضاحكت ، قال : فأعاد عليَّ القول ، وقال : يا هذا الله كفيل أن أعود إليك، وما زال يلحّ عليَّ إلى أن قلت : اذهب .

فلما توارى عني كأننى انتبهت فقلت : ما صنعت بنفسى ؟ ثم أتيت أهلى فباتوا بأطول ليلة ، فلما أصبحنا إذا برجل يقرع الباب ، فخرجت وإذا به ، فقلت : رجعت ؟ قال : جعلت الله كفيلاً ولا أرجع ؟ فانطلقت ، فلما بصر بى الحجاج قال : أين الأسير ؟ قلت : بالباب أصلح الله الأمير ، فأحضرته وقصصت عليه القصة ، فجعل يردد نظره فيه ، ثم قال : وهبته لك ، فانصرفت به ، فلما خرجت من الدار قلت له : اذهب أين شئت ، فرفع بصره إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد ، ولا قال لي : أحسنت ولا أسأت ، فقلت فى نفسى مجنون ورب الكعبة .

فلما كان فى اليوم الثانى جاءنى فقال : يا هذا جزاك الله عنى أفضل الجزاء ، والله ما ذهب عني أمس ما صنعت ، ولكن كرهت أن أشرك فى حمد الله أحداً .

---

(١) طرائف وملح ، لموسى الأحمدى .